16 الانتقاء يقي المصارع

شتان ما بين سلوك العقيدي وسلوك الفائر.

العقيدي له موازين محددة، يزن ويقيس ويمحص ويستنتج قبل أن يخطو.

والفائر يغضب ويندفع،ويسرع ويستعجل، فيتورط.

ولهذه الصفات الفردية أصداء وانعكاسات في المجموع، فالمجموع يندفع اندفاعات عفوية بإلحاح من أعضائه، فتتبد القوى،ويكون الفشل.

إنه الاندفاع العفوي الذي يسير فيه المجموع بلا خطة، أو خطة لا تلائم الواقع وبلا هدف، أو بهدف غير مركز ولا واضح.

وتتحمل الأماني والمثاليات والأحلام لجعله هدفا.

وهذا وصف مرعب في الحركات، يرغمها على التفتيش عن حلول تقي مصارع العفوية.

صعود الثقات رأس الوقاية

وأول الحلول يتمثل في تواصي قادة الحركة وجنودها بسمت من التشدد في تسليم مراكز التوجيه داخل الحركة، وتأمين صعود الثقات إليها، من أصحاب الإيمان والعلم والعمل.

كذلك فإن صعود الثقات إلى مراكز التوجيه هو الذي سيؤمن وضوح الأهداف البعيدة في أذهان المخلصين الفائرين من جنود الدعوة الجدد الذين لم تعركهم التجارب، وهو الذي سيؤمن تفسير السياسات المرحلية

لهم وإيضاح مسوغاتها، وفي كل هذا مساهمة أكيدة في التأمين ضد الاندفاع المستعجل، وضد الاندفاع غير الهادف.

والداعية حين ينظر الحالة الراهنة للحركات الإسلامية المنبثة في العالم الإسلامي، وحين يرجع إلى تاريخها، تتجلى أمامه عظم رعاية الله سبحانه لها في اختيار قادتها، فليس فيهم إلا إمام له قدم راسخة في العلم والصدق والإخلاص، لكن قد تجد لهم نوع تساهل في اختيار الأعوان دفعوا ثمنا غاليا في انشقاقات وفتن، أو في مواقف لينة، وكأن ذلك من تمام العناية الربانية أيضًا، فإنهم من خلال التساهل تعلموا التشدد، ومن معاناة التعامل مع الضعفاء تعلموا الحرص على الانتقاء، وليس مثل العلم التجريبي مصدر وعي.

تجارب أبدلتني غير ما خلقي وتوسع المرء إبدالا تجاربه [1]

ومنه نوع ما هو بتساهل، ولكنه ضرب من المجازفة في الاعتماد على السذج الذين ينقصهم أسلوب العصر ويعوزهم الوعي السياسي، حتى لكأن الدعوة تئن من كثرة أخطائهم، وتنادي:

*** تطاول همي، فابغني ذا نباهة** [2] *****

وإنه لهمٌّ طويل، يعرفه ويميزه المنغمس في العمل اليومي الحركي، فإن تعقد المجتمع الحاضر، وتعدد الأحزاب ونشاطها، والتخطيط اليهودي والماسوني داخل أقطار العالم الإسلامي، كل ذلك يتطلب نوعا من الدعاة المسلمين يزيدون على إيمانهم وإخلاصهم وعلمهم الشرعي نوعا من الوعي السياسي، والخبرة بالأساليب التنظيمية، والمهارة في التخطيط المتزن الملائم

(١) للبحتري في ديوانه ١/ ٢٢٦.

(٢) شطر من خريدة القصر ١/ ٢٥٨ القسم العراقي للعماد الأصبهاني.

للواقع الذي نعيشه والمناسب للقوة التي نملكها، وهؤلاء هم وحدهم أصحاب النباهة الذين يبددون هموم الدعوة.

لا نفصل بين الإدارة والتربية

وباطل ظن من يتوهم عدم وجوب شرط القدوة لمن يشتغل في مراكز الدعة التي ليس فيها توجيه تربوي مباشر، فالبعض يفصل بين المربين الدعاة وغيرهم ممن ينفذون الأعمال التي يتطلبها شمول الدعوة، لكن تحليل الظاهرة التربوية ينفي ذلك، فإنهم جزء مرئي من هذه الدعوة يقلده الجدد والأنصار، ولسان ناطق يسمعه هؤلاء فيتأثرون به. ولذلك لم يفهم السلف فصل وظيفة رجل الدولة الإسلامية عن التعليم والتربية، وكانوا يرون أنه رجل تربية أيضًا.

قال ابن تيمية / في شرح معنى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

(قال مجاهد: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي).

قال: **(وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني)**.

نقل عن علي قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها.

وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلمون.

قلت: أهل الأمر والنهي هم الفقهاء والمعلمون.

وقال قتادة وعطاء: واحدهم رباني، وهم العلماء المعلمون).

ثم ختم فقال إنهم: **(منسوبون إلى التربية)** [1].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٦٣.

وإذن، فإن جميع من يساهم في أعمال الدعوة إنما هو قدوة يحتمل تأثيرها، ويجب أن يجوز شرط القدوة العملية.

دقة مركز القدوة

ومركز القدوة حساس دقيق جدًا، ويجب ألا يوضع فيه إلا من كان مستعدًا للأخذ بالعزيمة، والبعد عن الرخص، وإلا من كان يغلب عليه الجد والزهد والتجرد، ويشتاق إلى التعب والبذل، لأنه إمام لمن حوله يقلدونه، ولابد أن يكون فعله أبلغ في التعبير عن عقيدته ومعاني دعوته من قوله، لأن المنظر أعظم تأثيرًا من القول.

ومن هاهنا، لما هم إمام مصر ـ الليث بن سعد بفعل مفضول ينافي العزيمة قال له إمام المدينة يحيي بن سعيد الأنصاري: (**لا تفعل، فإنك إمام منظور إليك**) [1].

وقيل:

"من لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب".

ومن لم ينعشك عبيره على بعد، فاعلم أنه لا طيب فيه، ولا تتكلف لشمه.

والداعية الصادق تستمر هيبته الإيمانية في تعاظم، وتظل في تصاعد ما تصاعدت هيبته لله -تعالى، وتعاظمت اهتمامات قلبه بدعوته، حتى يغدو منظره قاطعا لغفلة ناظره.

وقال الشافعي:

"من وعظ أخاه بفعله كان هاديًا".

---

(١) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٦٣.

وكان عبد الواحد بن زياد يقول:

(ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم منه).

وقال بعضهم:

"للمريد بلقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال، وقد قيل: من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه.

ثم شرح هذا المعنى اللطيف فقال:

(إن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر مما يكلمهم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده، ومصدره، وخلوته، وكلامه وسكوته، وانتفع بالنظر إليه، فهو نفع اللحظ، ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضا لا ينفع، لأنه يتكلم بهواه، ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها).

وهذا من جيد الكلام.

ومثله من كلام التابعين قول شهر بن حوشب:

(إذا حدث الرجل القوم فإن حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه).

وقول مالك بن دينار:

(إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا) أي قطرة الندى عن الصخرة الملساء.

ويروى أنه قيل لعيسي ÷:

(من أشد الناس فتنة؟

قال: زلة العالم، إذا زل العالم زل بزلته عالم كثير) [1].

فلكل هذا كان من فقه الدعوة دقة اختيار من يكون قدوة، ولا تساهل في الأمر، ولا نخدع أنفسنا فنسوغ التساهل تجاه البعض بعدم تسميتهم قدوات، وبوصف مهمتهم بغير وصف التربية، فإن كل من يتعامل مع الدعاة إنما هو قدوة لهم، من حيث إمكانية رؤيته وسماع قوله، ووجود تأثير السمع به، فإن انضاف إلى ذلك إيحاء وصف الداعية بأنه من المربين زاد التأثير ولا شك، وتفتحت القلوب لقبول كلامه ومواعظه، فإن عضدها فعله فنعمت المواعظ منه، وإن لم تترجمها حياته اليومية معهم إلى أفعال فإنها لا تعدوا أن تكون هذرًا منفرًا.

(إن الموعظة أن لم تتأد في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يغير النفس إلا النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير، كنفوس الأنبياء ومن كان في طريقة روحهم، وإن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام، لا وضع القياس والحجة، وإن الرجل الزاهد الصحيح الزهد إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئا في الحياة والعمل، لا شيئا في القول والتوهم، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار، من واتاها أحسها.

ولعمري، كم من فقيه يقول للناس: هذا حرام، فلا يزيد الحرام إلا ظهورًا وانكشافًا ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع، وقد خلا من القوة التي تجعله روحا تتعلق الأرواح بها، وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه آت من الجنة منذ قريب، راجع إليها بعد قريب.

---

(١) كتاب الزهد لابن المبارك/ ٥٢٠.

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا، هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه) [1].

وبإيجاز: إن **(الأسوة وحدها هي علم الحياة)** [2].

ودعوتنا هي الحياة.

فالأسوة وحدها هي علم الدعوة.

وعلم الدعوة كله هو الأسوة الصادقة.

اختبر عليم اللسان..!

ولو تفحصنا مدى تطبيق هذا العلم المهم لوجدنا ثغرات كبيرة في تاريخ الحركات الإسلامية الحديثة كان يحصل فيها انخداع بالخطباء وأصحاب الشهادات العالية والمشاهير، وكانوا يدفعون إلى الصدارة من دون طويل تجريب لهم، وتقع الدعوة في ورطة ربطهم باسمها، ولا يلبث المعدن الضعيف أن يفضح نفسه أثناء ترغيب أو ترهيب أو سياسة حركية تقتضي فقها لفهمها، فيكون النكوص.

إن الإيمان، وفقه الدعوة، وشدة الانغماس في العمل التجميعي والتربوي ووضوح الطاعة، هي المحكمات التي يجب أن تتحكم في عملية الانتفاء والتأمير، ولا شروط الوظائف الحكومية، وأعراف المجامع الأدبية.

بل إن على الدعاة أن يجفلوا ويخافوا ويحذروا من يكون عليم اللسان، الذي يكثر التشدق، ويتكلف اختيار الفصيح، فإن النفاق والضعف يكثر

---

(١) للرافعي في وحي القلم ٢/ ٢٠١..

(٢) للرافعي في وحي القلم ٢/ ١١١.

في هذا الصنف، ويجب ألا يطمئن الداعية إلى أحد بهذه الصفة إلا من بعد أن يضمر في نفسه امتحانه، فيراقبه مراقبة دقيقة مدة، ويكون توثيقه له من بعد تجربة، ومن بعد رؤية قرائن إيمان وصدقه.

وللداعية في ذلك سلف، فإن عمر بن الخطاب ا لما خلف الأحنف بن قيس ا – وكان الأحنف متكلما لبقا داهية أبقاه عمر معه في المدينة سنة يراقبه، ثم قال له:

(يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيرًا، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإنا كنا نتحدث: إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم.

وكتب عمر إلى أبو موسى الأشعري: أما بعد: فأدن الأحنف بن قيس، وشاوره، وأسمع منه) [1] .

وكم يحيط بالدعوة في العالم الإسلامي اليوم من رجال يجب على قادة الدعاة امتحانهم، وكم هي حاجة الدعاة إلى مثل علم عمر.

كم من المتكلمين بالإسلام ترى الدعاية ترفعه، فإذا عاملته وجدته مصلحيا جاف القلب والروح.

وحقا قال عبد الوهاب عزام:

إن في الناس أوجهات لامعات تملأ العين زهرة ورواء

ويراها البصير صورة زهر لم تهبها الحياة عطرا وماء [2]

ولمثل هذا دأب السلف الصالح على كثرة التوصية بضرورة مثل هذا الاختيار، كقول سيد التابعين الحسن البصري:

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٩٤.

(٢) ديوان المثاني/ ٨١.

(اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم، ونعمة عين، فآخه، وأحببه، وأوده، وإن خالف قولا وعملا فماذا يشبه عليك منه، أو ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك) [1] .

إنها الوصية القديمة، ولكن القلوب تغفل، وشهوة الوصول السريع، أو شهوة التكاثر بالأنصار، تلهي، وتدعو إلى التجاوز عن العلم الموروث.

البدعة ضعف أيضًا

وضعف الضعيف يكون من بدعة كما يكون من ذنب، هذا ما تعارف عليه العلماء منذ القدم، حتى إنهم كانوا ليهجرون الأخ الشقيق إذا اعتقد ببدعة، مثل علي بن حرب بن محمد الموصلي، هجر أخاه أحمد بسبب قوله: إن لفظه بالقرآن مخلوق. مع ثقته وصدقه، [2] ومع سلامة قوله هذا، واشتهاره عن البخاري أيضًا، ولكنه أنكر عليه لقرب العهد من بدعة خلق القرآن، وأرادوا ألا يدندن أحد بما يقرب من ألفاظ المعتزلة ويزيد حيرة العامة.

ولكن أدعياء وحدة الأمة في هذا العصر يدعون إلى التجاوز عن معاني البدعة، وسرى هذا الوهم الدعاة، وأسقطوا أمر البدعة كعامل من عوامل التمييز، فوقعوا في الخطأ.

إنه خلق جميل أن تعطف على المبتدع، وأن تنصره على كافر، وترفع الظلم عنه، وتقف معه في وجه من هو أكثر بدعة منه، لكنه أمر خطر أن

---

(١) الزهد لابن المبارك/ ٢٦.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ٢٣.

تفتح له صفوف الدعوة قبل توبته، وأن تؤمره قبل سلامته، وأن تحبه قبل غسله الأدران التي علقت بعقيدته، فإنه ما أوهى أمر الأمة إلا البدع، كما قال الفضيل بن عياض:

(من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام).

وقال: **(من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه).**

إن الدعوة للأخذ بيد المذنب والعاصي في تصرفاته السلوكية، إذا كان أصل الإيمان في نفسه أهون بكثير من التعاون مع المبتدعة حال تمسكهم ببدعهم، والمذنب أقل ضررًا من المبتدع من وجوه، منها:

(أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على الناس.

وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة.

والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع مناقض لما جاء به ﷺ والعاصي ليس كذلك.

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير) [1].

من فقه الفضيل في العمل

إن حذر العمل الجماعي الإسلامي من المبتدعة أصبح قاعدة تؤكد نفسها يومًا بعد يوم.

وإنها لقاعدة قديمة، عمل بها الفضيل بن عياض، وأوجزها في كلمات رائعة، فقال:

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم/ ١٢٧.

(لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة، فإني إذا أكلت عندهما لا يقتدى بي، وإذا أكلت عند صاحب بدعة اقتدى بي الناس.

أحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد، وصاحب البدعة لا تأمنه على دينك، ولا تشاوره في أمرك).

إن هذا القول القديم ترجمة كاملة للمعنى الذي نقصده، ومبدأ التشدد في الانتقاء، صاغه الفضيل في مَثَل من المؤاكلة، تقريبا للفهم.

استر سمعة الإسلام

فقد بان إذن أن التشدد في الانتقاء هو الحل الأساسي للتأمين ضد الاندفاعات العفوية، وإن أجزاء الحركة الإسلامية مدعوة إلى الاستدراك السريع في هذا المجال.

بل الحق أن الانتقال إلى هذا التشدد ستر واجب لسمعة الإسلام اليوم، كما قال الزاهد الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري السامرائي لبعض من يأمر بالمعروف:

(اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور: ستر العيوب) [1].

ومن أهم أوصاف الستر الذي يطلبه ابن هبيرة: أن تحرم أعداء الإسلام من فرصة الإشارة إلى مثل هؤلاء الضعفاء، والتشهير بالدعوة من جراء تصديهم لأمورها، وكلما دفعت التقي النقي إلى الظهور دون الضعيف والمصلحي والمبتدع كنت أكثر صونا لسمعة الإسلام.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٤.

بل ينبغي ما هو أشد من هذا، فإنه من الواجب على الثقة أن يفوت الفرصة على الضعيف إذا جالسه بقصد أن يقال: جالسه الثقة فلان من الدعاة فهو ثقة، وإنه لو لم يكن ثقة لما جالسه.

وشبيه بهذا ما أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري ا قال:

(كان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله. فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم) [1].

فلو قال لهم: يرحمكم الله. لقالوا للمسلمين: لو كنا ضالين لما دعا لنا بالرحمة.

وأيضًا فإن تنظيمنا ما هو بطبيب يداوي، وإنما هو مستدرك يغتنم الفرص قبل أن يحول طول تسلط الطغيان سلبية المسلمين إلى استخذاء دائم، ولذلك وجب عليه الانتقاء والتخير للأذكياء الشجعان، ومنع الجبناء وضعاف الشخصية وقليلي الذكاء من دخوله، توفيرًا للجهود التربوية، وإسراعًا في تحقيق الغايات، مع التعويض بتعاون معهم خارج عن الالتزامات الدقيقة.

وليس في هذا المنع عدوان على هؤلاء كما يظن البعض، ولا بخس لحقوقهم، ولا منع خير، وإنما هو باب من التقوى في أمر الدعوة توجبه المصلحة، وتؤكده التجارب، ولهؤلاء الضعاف إسلامهم، ولا نبخل عليهم بحبة ونصيحة، ولكن أمر الدعوة شديد لا يصلح له إلا الأشداء الأذكياء، فمنعنا تقوى وانتقاؤنا عزم، كما قال الشاعر:

منعت، وبعض المنع حزم وقوة ... صنيعة تقوى تلك ما دمت ناصحة

---

(١) سنن الترمذي ١٠/ ١٩٨..

فبعض المنع، وسد الأبواب بوجه الضعفاء، إنما هو حزم وقوة تحركهما التقوى، من دون غلو في اتهام الناس، أو سوء ظن، أو شطط في التعامل.

أنت يوسف هذه الأحلام

إن تجمعًا لا ينتقي أعضاءه قد ينهار، لا بأول عاصفة يتعرض لها، بل بأول نسمة خفيفة تفجؤه.

وهذا تعبير له تعبير، كما يقول الإمام البنا /:

(وأنت يوسف هذه الأحلام، فإذا راقك ما نحن عليه فيدك مع أيدينا لنعمل سويا في هذا السبيل، والله ولي توفيقنا وتوفيقك) [1].

أنت يوسف هذه الأحلام أيها الغيور.

وبدونك يبقى هذا الفقه أحلامًا، وأنت أنت الذي عندك تأويلها العملي وتطبيقها الواقعي.

فدع السلبية، وبادر من فورك...

واخلع ثياب الأسى واليأس مرتديًا ... ثوب الجهاد نشيطا غير كسلان

وأتقن الموت فنا كيف تجرعه ... إن لم يكن منه بد غير خشيان [2]

* * *

(١) رسالة دعوتنا/ مجموعة الإمام/ ١٢٢.

(٢) ليوسف القرضاوي/ مجلة التربية الإسلامية ٥/ ٢١٨.